الفصل الرابع عشر

مينا تخشى الليل

بينما أُبعدت مينا عن الخطة ونامت وهي حزينة، غادر الرجال المصحة وتسللوا إلى المنزل المجاور؛ إلى كارفاكس في جُنح الظلام. كان كل منهم يحمل صليبًا وبعض الثوم وقطعة من الخبز المقدس.

كانت بحوزتهم أيضًا مفاتيح تستطيع أحيانًا أن تفتح العديد من الأبواب المختلفة إذا حُركت بطريقة صحيحة. انفتح قفل الباب الأمامي لكارفاكس في النهاية، وبعد دفعه، أصدرت مفصلاته الصدئة صوت صرير، وانفتح الباب ببطء. نظر الرجال بإمعان في الداخل، فرأوا أن المكان يغطيه تراب كثيف وكتل كبيرة من شِبَاك العنكبوت. تعوَّذوا برسم الصليب أثناء تجاوز العتبة.

همس فان هيلسنج قائلًا لجوناثان: «لقد رأيت خرائط لهذا المكان عندما كنت ترتب لشرائه، فقُدنا إلى الكنيسة الصغيرة.»

وجد جوناثان بسرعة التوابيت الممتلئة بالتراب التي كانوا يبحثون عنها، لكن عندما أحصوها وجدوا أنها تسعة وعشرون تابوتًا فقط وليست خمسين. وحينها، بدأ شيء يتحرك على الأرض تحت أقدامهم. هل كان الكونت يزحف؟ أم كان هؤلاء مصاصي دماء آخرين؟

لم يكن الأمر كذلك، لقد كانت فئران؛ مئات الفئران. كان المكان يموج بها!

كان رد فعل اللورد جودالمينج هادئًا. أخرج من جيبه صفارة فضية ونفخ فيها. جاء الرد على صفارته من خلف منزل الدكتور سيوارد في صورة نباح كلاب. وبعد دقيقة، اندفعت عبر الباب المفتوح ثلاثة كلاب صيد شرسة ودخلت إلى الكنيسة. كانت تهاجم وتنبح بوحشية، فهربت جميع الفئران.

فتَّش الرجال بقية أنحاء المنزل، لكنهم لم يجدوا شيئًا. لم يكن الكونت هناك.

قال فان هيلسنج وهم في طريقهم إلى الخروج: «استطعنا على الأقل أن نحصي التوابيت، وتعرفنا أيضًا على المنزل.»

اتفق الرجال على أن عدم حضور مينا معهم كان أفضل قرار اتخذوه. واتفقوا على ألا يطلعوها على تفاصيل مهمتهم المرعبة. كان هذا شاقًّا على جوناثان لأنهما اعتادا أن يتشاركا دائمًا كل شيء، لكنه كان مستعدًّا لفعل أي شيء لحمايتها، لذا التزم بالخطة.

عندما عادوا إلى المصحة، ذهب جوناثان ليطمئن على مينا، فوجدها أكثر شحوبًا من المعتاد، لكن باستثناء ذلك، كانت تبدو بصحة جيدة وتنعم بنوم هادئ.

استيقظت مينا في الصباح التالي وهي تشعر بحزن غريب وإحباط. فكرت في أن السبب حتمًا كان الحلم المريع الذي راودها، وارتعدت لذكره. لقد رأت ضبابًا أو دخانًا كثيفًا يتسرب من صدوع الباب. كان الهواء يزداد رطوبةً وبردًا. ثم رأت شيئًا أسود بعينين حمراوين ينحني فوقها.

بالتأكيد — حسب ظنها — لم يكن هذا سوى شعورها بالذنب على مشاركتها في موت لوسي بإحضارها إلى ويتبي. لكن في الليالي القليلة التالية، مرت بالتجربة نفسها وشعرت بأن حالتها ساءت عندما استيقظت. كانت تزداد شحوبًا وإعياءً أثناء النهار. وطلبت من الدكتور سيوارد دواءً يساعدها على النوم.

وصف لها الدكتور سيوارد دواءً، وفي الليلة التالية تناولته، لكن ما إن بدأ مفعوله يسري في جسدها حتى تملكها خوف غريب. تساءلت فجأة هل أخطأت بأخذها دواءً يمنعها من الاستيقاظ إذا احتاجت إلى ذلك. وظنت أنها ستكون في أمان أكثر وهي مستيقظة.

لكن الأوان كان قد فات، فقد غلبها النعاس.

الفصل الخامس عشر

رينفيلد يتحدث

كان جوناثان يقتفي بدأب أثر توابيت التراب المفقودة. سأل العديد من الناس بدءًا من الشركة التي استأجرها الكونت لشحن التوابيت وتسليمها، وعرف وجهات بعض التوابيت في مناطق مختلفة بلندن.

لاحقًا، علم جوناثان أن العديد من التوابيت قد أُخذت إلى منزل في بيكاديللي. وعندما تظاهر بأنه عمدة المدينة، استطاع أن يحصل على العنوان بالتفصيل. وعندما وصل هناك، علم أنه في المكان الصحيح، فقد كان المكان يبدو مهجورًا منذ زمن بعيد. كانت لافتة كُتب عليها «للبيع» ذُكر فيها أسماء الوكلاء — وهم «ميتشيل وأولاده وكاندي» — قد أُنزلت مؤخرًا وتستند إلى جدار المنزل.

ذهب جوناثان إلى مكتب الوكلاء. لكن عندما سألهم عن الذي اشترى المنزل، لم يقولوا سوى «المنزل مباع». ضغط جوناثان على أحدهم حتى قال: «شئون عملائنا سرية للغاية.»

قال: «إن عملاءكم محظوظون لأن لديهم أشخاصًا جادين ومخلصين في خدمتهم، سيشعر مديرو اللورد جودالمينج بخيبة أمل، لكن سيكون عليه ببساطة أن يتقبل هذا الخبر.»

سأله الوكيل: «اللورد جودالمينج؟» كاد جوناثان يرى عقل الوكيل واسم مثل هذا النبيل الثري يدور بداخله. ثم هزَّ الوكيل كتفيه في حرج، وقال: «حسنًا، ربما أمكننا هذه المرة أن نعطيه استثناءً، هذه المرة فقط. لقد اشترى المنزل نبيل أجنبي يُدعى الكونت ديفيلي. ودفع المبلغ نقدًا. ولا نعلم أكثر من هذا.»

عندما عاد جوناثان حاملًا تفاصيل منزل بيكاديللي، تساءل الرجال: «كيف سندخل المنزل؟» كانوا يعتقدون أنهم سيجدون كل ما يبحثون عنه هناك؛ كل أوراق الكونت وحجج ملكياته ومفاتيحه.

قال فان هيلسنج: «يمكننا اقتحامه كما فعلنا في كارفاكس.»

أوضح موريس: «لا أظن ذلك ممكنًا، هناك اختبأنا في ستر الليل ووراء سور يحمينا. أما اقتحام منزل في وضح النهار في موقع مركزي كهذا على الطريق فسيكون أمرًا مختلفًا.»

فكَّر فان هيلسنج دقيقة قبل أن يسأل: «إذا كنا أصحاب ذلك المنزل، ولم نستطع الدخول، فماذا كنا سنفعل؟»

قال جوناثان: «كنا سنستدعي مصلح الأقفال، ونقف هناك معه وهو يفتح القفل. إنها فكرة رائعة حقًّا. إذا مرت الشرطة بجانبنا ورأت شاحنة مصلح الأقفال وزيه الرسمي، فلن يفكروا في التدخل!» واتفق الرجال على أنها خطة بارعة.

في الوقت نفسه، بدت تصرفات رينفيلد أغرب من المعتاد.

سأله الدكتور سيوارد محاولًا تحليل نفسيته: «هل تود بعض الذباب؟ أو العناكب؟»

قال رينفيلد مستهزئًا: «عناكب؟ لا يوجد بها شيء آكله أو أشربه.»

ردد الدكتور سيوارد منزعجًا: «تشربه؟»

شعر رينفيلد بالذنب وكأنه أفشى سرًّا عن غير قصد. ولم يرغب في الكلام بعدها. فقد الدكتور سيوارد الأمل، ولكن أثار اهتمامه مدى توتر المريض لدى ذكر الشرب.

بعدها فهم الدكتور سيوارد الأمر: لقد تجاوز رينفيلد مرحلة الاستمتاع بتناول الحيوانات. كانت الحياة البشرية والدماء هي ما يسعى إليه رينفيلد! استنتج دكتور سيوارد أن الكونت قد وصل إلى رينفيلد، وأن خطة إرهاب جديدة من نوع ما كانت تُحاك.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، تحققت أكبر مخاوف الطبيب؛ حين جاء أحد الموظفين المقيمين ليخبره بأن شيئًا ما حدث لرينفيلد. هرع الدكتور سيوارد إلى غرفة رينفيلد ليجده مطروحًا أرضًا فاقد الوعي وبجسده جروح بالغة، ينزف على إثر ضربات في جسده ورأسه ووجهه.

قال دكتور سيوارد للموظف المقيم: «اذهب وأحضر الأستاذ فان هيلسنج.»

أتى آرثر وكوينسي موريس واللورد جودالمينج أيضًا. أدخل فان هيلسنج المريض بسرعة غرفة العمليات حيث أجرى له جراحة لتخفيف الضغط عن مخه. وبعد ذلك، فتح المريض عينيه.

سأل رينفيلد: «هل أحتضر أيها الطبيب؟»

أجابه فان هيلسنج: «ربما، لذا حان الوقت لأن تخبرنا كل شيء.»

قال رينفيلد: «لقد قطع لي وعودًا، وجعلني أفعل أشياء.»

قال فان هيلسنج: «الكونت؟ هيا أكمل.»

قال رينفيلد: «لكنه كان كاذبًا. لذا عندما أتى الليلة مرة أخرى من أجل السيدة مينا ...»

لدى سماعهم هذا، انتفض كل رجل في الغرفة واثبًا من مكانه واقتربوا.

وتابع رينفيلد: «... قاومته، وقد فعل ذلك بي. كسرني.» بعد ذلك، شق عليه الحديث، فتركه الرجال بمفرده.

قال فان هيلسنج: «غير معقول، ظننا أننا نحميها بإبقائها بعيدًا عن خططنا. لكن عندما ابتعدنا وتركناها دون حماية، جلبنا لها المعاناة.»

هرع الرجال إلى غرفة مينا لكنها كانت موصدة. شعروا بأن ذلك الباب وراءه خطر عظيم، فكسروه واقتحموا الغرفة. وما رأوه بالداخل كاد يجعل الرأس شيبًا.

كان جوناثان راقدًا على الفراش يتنفس بصعوبة ويبدو فاقدًا للوعي. وكانت تميل نحوه زوجته مينا بردائها الأبيض، وبجانب مينا كان يقف رجل طويل نحيف بزي أسود. الكونت. كان الكونت يمسك يدي مينا بيساره. ويدفع رقبتها من الخلف بيمينه دافعًا وجهها نحو صدره! لقد كان يجبرها على شرب دمه!

بمجرد دخولهم الغرفة، اهتاج الكونت، واتسعت فتحتا أنفه كحيوان غاضب ورمقهم بنظرات شيطانية غاضبة. ألقى مينا جانبًا واندفع نحو الرجال يهاجمهم، لكن الأستاذ هيلسينج كان مستعدًّا له ورفع يده وبها خبز القربان. جثم الكونت مرتعدًا وتقدم نحوه الرجال الأربعة ممسكين بالخبز والصلبان أمامهم.

لكن في تلك اللحظة، اختفى القمر برهة خلف سحابة. وفي الظلام، اختفى الكونت كنفثة الدخان، تاركًا وراءه أثرًا ضبابيًّا فقط.

ركض آرثر واللورد جودالمينج خارجين من الباب ليحاولا أن يتبعاه. بدأت مينا تبكي وتصدر عويلًا صاخبًا لا نهاية له. خطا نحوها فان هيلسنج ودثَّرها برفق بغطاء. كانت رقبتها تنزف؛ فقد أعطت دمًا كما أخذت دمًا.

حينها تحرك جوناثان، محاولًا أن يفيق، ناظرًا حوله في ارتباك، وقال: «ماذا تفعلون جميعًا هنا؟ ماذا حدث؟» نظر إلى زوجته، وإلى الدماء التي لطخت رقبتها وفمها، وسأل: «ماذا تعني هذه الدماء؟»

وفجأة أدرك كل شيء، فبكى قائلًا: «غير معقول، لا، لا، لا! ساعدنا يا إلهي، لا تدع هذا يحدث، ليس لحبيبتي مينا!»

عندئذ، اشتد عويل مينا.

حضن جوناثان مينا. لطخت الدماء التي كانت على رقبتها قميصه، فابتعدت عنه وانتحبت وهي تقول: «لا تحضني، فأنا ملوثة. لا أستطيع أن أقبلك أو ألمسك بعد الآن. كم هذا مؤلم! تخيل أن أكثر شخص يحبك يجب أن يكون الآن ألد أعدائك، أن يكون أكثر من تخشى!»

عاد آرثر واللورد جودالمينج. لم يجدا أثرًا للكونت. لكن عندما كانا بالخارج، رأيا خفاشًا ضخمًا يطير من نافذة رينفيلد، وعندما صعدا لغرفة المريض، كان ميتًا.

سأل فان هيلسنج: «هل اتجه الخفاش نحو كارفاكس؟»

أجاب موريس: «لا.»

قال فان هيلسنج: «حسنًا، لقد اقترب الفجر، لذا لن يعود الليلة. غدًا نواصل ملاحقتنا له. لكن الليلة ...» والتفت إلى مينا قبل أن يكمل: «لا بد أن تخبرينا كل ما تذكرينه، إذا استطعت أن تتحملي ذلك.»

قالت مينا: «لقد أخذت المنوم الذي أعطيتني إياه، فغلبني النعاس. وما أذكره بعد ذلك هو أني رأيت ضبابًا أبيض في الغرفة، وشعرت بالرعب نفسه الذي تملَّكني سابقًا وبحضور قوي. كان جوناثان نائمًا إلى جواري، وحاولت أن أوقظه، لكني لم أستطع. نظرت حولي في رعب. ثم خرج من بين الضباب رجل طويل نحيف مغطًّى برداء أسود بالكامل. عرفته على الفور من الوصف الذي أعطيتموني إياه جميعًا ومن مذكرات جوناثان. الوجه الشاحب، والأنف الطويل، والشفتان الحمراوان المفتوحتان ليكشفا عن أسنان حادة، و...» ثم أضافت وهي ترتجف: «هاتان العينان الحمراوان المخيفتان!»

وتابعت: «هممت بالصراخ، ولكنه أخبرني أنه سيقتل جوناثان إن فعلت. قال إنه سيشرب دمائي وإنها لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها هذا. شعرت بأن قواي تخور. لم يكن هناك ما أستطيع فعله.

ثم تحدث عنكم جميعًا. وسخر من محاولاتكم هزيمته؛ هو الذي عاش مئات السنين حتى قبل أن تولدوا. قال إنه سيعاقبني على مساعدتي لكم، وإن عقابي سيكون أن ألبي

نداءه إلى الأبد متى دعاني. عندما يقول عقله «تعالي»، سأعبر رغمًا عني الأرض والبحار لألبي أمره. وليضمن نجاح خطته، فتح وريدًا في صدره وأجبرني على شرب دمائه! لم يكن لدي خيار! لم أستطع أن أتنفس! يا إلهي! ماذا فعلت؟» وبدأت مينا تفرك شفتيها بعنف وكأنها تزيل من عليهما سمًّا.

قرر الرجال أنه منذ تلك اللحظة فصاعدًا، ستكون مينا على علم دائم بتفاصيل خططهم. فان هيلسنج فقط هو من كانت لديه بعض التحفظات. سأل مينا: «ألا تخافين، ليس على نفسك، ولكن على الآخرين بعدما حدث؟»

قالت: «لا، إذا شعرت ولو للحظة بأنني قد أوذي أحدًا، فسأموت.»

سألها فان هيلسنج في عجل: «هل ستقتلين نفسك؟»

أجابت: «سأفعل ذلك إذا لم أجد صديقًا يحبني حبًّا يجعله يفعل ذلك من أجلي.»

قال فان هيلسنج مؤكدًا: «مطلقًا! لا يجب أن تموتي، ليس بيد أي شخص، ولا بيدك أنت. الآن وقد احتسيت شربة دماء من أوردته، إذا متِّ قبل الكونت، فلن تموتي بالفعل. بل ستعيشين إلى الأبد، كما حدث له. والآن لا بد أن يموت هو قبلك، وسيلقى حتفه. أما أنتِ فستعيشين حياة طويلة وسعيدة مع زوجك. يجب أن تكافحي وتناضلي في كل وقت من أجل حياتك. هل تفهمين؟»

قالت مينا: «نعم، أفهم.»

التفت فان هيلسنج للآخرين قائلًا: «جيد. أمامنا نهار طويل نستطيع خلاله أن نمسك به، أن نجد مزيدًا من توابيت التراب، وأن نعقمها. سيظل الكونت في الصورة التي هو عليها الآن أيًّا كانت هذه الصورة حتى تغرب الشمس. إنه مقيد بقيوده الخاصة. فلنباشر العمل!»

الفصل السادس عشر

الخبز يحرق مينا

قرر الرجال أن يتوجهوا للمنزل الكائن في بيكاديللي، وأن يبقى فان هيلسنج ودكتور سيوارد وجوناثان هناك بينما يغادر اللورد جودالمينج وكوينسي موريس للبحث عن التوابيت في مواقع عديدة أخرى ويدمروها. قال فان هيلسنج إن الكونت ربما يظهر في بيكاديللي نهارًا في صورة بشرية، وفي هذه الحالة سيواجهونه.

كانت مينا ستبقى بأمان في المصحة حتى غروب الشمس؛ حيث لم تكن تقوى على السفر. وسيحرص الرجال على العودة قبل ذلك. ومع ذلك، نشر فان هيلسنج — للاطمئنان فقط — الثوم والصلبان في أنحاء الغرفة. ثم أخرج قطعة من خبز القربان ولمس بها جبهتها.

عندما لمس الخبز بشرتها، صرخت مينا صرخة مدوية خلعت قلوب الجميع. لقد حرق الخبز لحمها، تاركًا عليها ندبة وكأنه قطعة معدن ملتهبة!

أدرك الجميع على الفور دلالة ذلك: لقد سممها الكونت بالفعل، وكانت تسير بخطى ثابتة في الطريق إلى أن تصبح نسخةً منه. نزلت على ركبتيها وهي تبكي: «ملوثة! ملوثة! أصبحت مجبرةً الآن على أن أحمل وصمة العار هذه على جبيني!»

حاول فان هيلسنج أن يهدئ من روعها فقال: «هذه الندبة ستختفي ما إن يختفي ذلك الوحش الذي لا يزال يطبق على أنفاسنا هو الآخر. ستكون جبهتك يومًا من الأيام نقية كنقاء قلبك الذي لا نزال نعرفه.»

قبل التوجه إلى بيكاديللي، عرَّج الرجال على منزل كارفاكس لتطهيره، عن طريق نثر أجزاء الخبز المقدس في كل التوابيت الموجودة به. وما إن وصلوا بيكاديللي حتى بدءوا في اتباع الخطة التي كانوا قد وضعوها. تظاهر اللورد جودالمينج بأنه مالك العقار وأن الباب قد انغلق دونه ولا يسعه الدخول. ووقف الآخرون يراقبون من متنزه في

الجانب الآخر من الشارع بينما كان مصلح الأقفال يفتح القفل. مرت الشرطة فعلًا على جانب الطريق ورفعوا قبعاتهم تحيةً للورد جودالمينج ومصلح الأقفال متمنين لهم نهارًا سعيدًا! أدرك الرجال أن الأمر كله يتوقف على طريقة تصرف المرء.

وفور أن دخل الرجال وأغلقوا الأبواب خلفهم، أجروا بحثًا سريعًا. لم يكن الكونت هناك، لكنهم وجدوا بالفعل ثمانية توابيت أخرى وعقموها. كان التابوت التاسع مفقودًا، لكنهم وجدوا العديد من الأوراق المهمة بالإضافة إلى مفاتيح منازل أخرى كانت تُخزن فيها المزيد من توابيت التراب.

خرج اللورد جودالمينج وكوينسي موريس عازمين على تدمير التوابيت المتبقية في المنازل الأخرى، وكان الوقت يمر ببطء أثناء انتظار جوناثان وفان هيلسنج لهما. وفي سبيل تمضية الوقت، قص فان هيلسنج لدكتور سيوارد وجوناثان المزيد عن الكونت. قال لهم إنه منذ زمن بعيد، كان هذا الوحش في الواقع رجلًا عظيمًا؛ كان جنديًّا، ورجل دولة، وعالمًا.

قاطع قصة فان هيلسنج صوت طرق على الباب. لقد كان ولدًا جاء يسلم برقية. فتح فان هيلسنج الباب وسلمه الولد ورقة. كانت من مينا.

كانت الرسالة تقول: احذروا من «د». لقد غادر كارفاكس لتوه. ويبدو أنه متجه نحوكم.

صاح جوناثان: «فليأت! لا أطيق صبرًا حتى أمسح ذلك الوحش من وجه الأرض. أنا على استعداد لأن أبيع روحي لقاء هذا!»

حذره فان هيلسنج قائلًا: «لا تقل مثل هذه الأمور. لن يبيع أحد روحه. سنقاتل هذا الشيء وجهًا لوجه.»

عاد موريس واللورد جودالمينج، وأكدا أن التوابيت التي كانت في بيرموندسي ومايل إند قد دُمِّرت. لكن في تلك اللحظة، سمع الرجال صوت تدوير مفتاح برفق داخل القفل الذي كان قد فُتح مؤخرًا في الباب الأمامي.

ودون أن يتفوهوا بكلمة، اجتمع الرجال كفريق واحد قابضين بأيديهم على صلبانهم وخبزهم المقدس. كانت الثواني تمر ببطء رهيب وكأنه كابوس. ثم سرعان ما أتت خطوات حذرة تسير في الرواق. بدا جليًّا أن الكونت كان مستعدًّا لمفاجأة من نوع ما.

وبقفزة واحدة، كان في الغرفة، يركض نحوهم كالنمر قبل أن يتمكن أيهم من إيقافه. عندما رآهم زمجر بصوت مرعب وكشَّر عن أنيابه. تحرك جوناثان أولًا؛ فأخذ

سكينًا وقفز نحو الكونت. لكن الكونت كان سريعًا فقفز للخلف وتجنب الشفرة التي لم تصب سوى جزء من معطفه. الغريب أن قطعًا ذهبية سقطت من الثقب وأخذت تدور على الأرض.

اعتلت وجه الكونت نظرة غريبة جمعت بين الكراهية والغضب. تحولت بشرته الشاحبة إلى لون أصفر مائل للخضرة، وازدادت عيناه احمرارًا وتوهجًا. وفجأة، انحنى تحت ذراع جوناثان، واغترف بكفه بعض العملات الذهبية وألقى نفسه من النافذة محطمًا الزجاج. عندما سقط الكونت على الأرض، نهض ولم يصبه مكروه، فركض عبر الساحة، ودفع باب الحظيرة الموجودة في نهاية العقار ففتحه.

التفت ليصرخ في وجوههم: «تحلمون بأن تفوقوني ذكاءً! تظنون أنه بتطهير التوابيت لا تتركون لي مكانًا لأرتاح فيه، لكني أملك المزيد! لقد بدأ انتقامي للتوِّ! لقد امتد على مر القرون، والزمن حليفي! لقد سقطت نساؤكم في شركي بالفعل، وعن طريقهن ستكونون عبيدي أنتم وغيركم! ستمتثلون جميعًا لأوامري! سأكون سيدكم!»

زفر من أنفه صوت ينم عن الاستهزاء، ودخل الحظيرة وأغلق الباب وراءه. تبعه الرجال وفتَّشوا الحظيرة، لكن الكونت اختفى. لم يثبط ذلك من عزيمة فان هيلسنج الذي قال: «لقد عرفنا الكثير. يبدو جليًّا أنه يخشانا ويخشى الوقت. وإلا فلم تعجل هكذا؟ لماذا أخذ تلك العملات المعدنية؟ إننا نحرز تقدمًا. وغدًا نحرز المزيد. فلم يتبقَّ سوى تابوت تراب واحد فقط.»

لكن الخوف بالطبع كان من أن يظل هذا التابوت الأخير مخفيًّا لسنوات، وأن تستمر حالة مينا في التدهور حتى يستحوذ عليها الكونت تمامًا وتصبح ضحيته. لذا، كانوا يسابقون الزمن.

عاد الرجال إلى المصحة، وفي تلك الليلة على مائدة العشاء، قالت مينا عبارة فاجأت الجميع: لقد ذكرتهم بأنهم بينما كانوا جميعًا تعساء يعانون، كان الكونت هو الأتعس على الإطلاق: «تخيلوا كم سيكون سعيدًا عندما يُدمر الجانب الشرير فيه مفسحًا الطريق للخير الذي بداخله ليحيا إلى الأبد. يجب أن تكونوا لطفاء معه من هذا المنطلق أيضًا.» توقفت عن الحديث، وللحظة توهجت الندبة التي كانت على جبهتها وكأنها تذكير أقوى، ثم قالت: «قد أحتاج إلى شفقة مماثلة يومًا ما. وأتمنى ألا تنكروها عليَّ. لا بد أن تعدوني أنه إن جاء وقت تغيرت فيه كثيرًا حتى أصبح الموت خيرًا لي، فستفعلون اللازم، دون تردد ولو لحظة، لتمنحوني السلام.»

ساد صمت رهيب. ثم كان كوينسي موريس أول من كسره قائلًا: «أعدك يا مينا ألا أتكاسل عن الفِعل الرهيب الذي طلبتِه منا.»

قالت مينا وهي تقبِّل يده: «صديقي المخلص!»

سألها جوناثان: «وهل يجب أن أقطع ذلك الوعد أيضًا يا زوجتي؟»

أجابت: «يجب أن تفعل هذا أكثر من أي شخص آخر يا أحب الناس إليَّ.»

الفصل السابع عشر

مينا تقرأ أفكار الكونت

خطرت لمينا فكرة. فحيث إنها أصبحت الآن متصلة بالكونت، أرادت من فان هيلسنج أن ينومها مغناطيسيًّا. ربما استطاعوا استخدام هذا التواصل لمصلحة المجموعة.

وقد فعل ذلك قبيل الفجر، حيث كانت مينا تشعر أنه أفضل وقت تستطيع التحدث فيه بحريتها. عندما فتحت عينيها بعد تنويمها، لم تكن هي نفس المرأة. كان يبدو جليًّا أنها واقعة تحت تأثير سحر الكونت.

سألها فان هيلسنج: «أين أنت؟»

أجابت مينا بالنيابة عن الكونت: «لست متأكدًا، لكنني أسمع صوت تلاطم مياه.»

لقد كان الكونت على متن سفينة! كان ذلك منطقيًّا جدًّا. فقد كان ينقل آخر تابوت لديه عن طريق البحر. في تلك اللحظة، طلعت الشمس، واستيقظت مينا.

سألت راجيةً: «هل نجح الأمر؟»

أجاب فان هيلسنج: «نعم، نجح.»

أسرع الرجال بتتبع آخر خيط منحتهم مينا إياه. كانت هناك العديد من السفن في ميناء لندن الكبير، لكن على الأقل أصبح لديهم الآن دليل يرشدهم. علموا لِم كان الكونت يحتاج إلى العملات المعدنية؛ كان يحتاجها لشراء تذكرة من أجل السفينة.

مكث جوناثان مع مينا متخلفًا عن الرجال الآخرين الذين ذهبوا للبحث في الموانئ. شكوا في أن الكونت يحاول الرجوع إلى ترانسلفانيا. وسرعان ما تأكدوا من ذلك، حين رأوا على متن سفينة تُدعى «زارينا كاثرين» رجلًا طويل القامة، نحيفًا وشاحبًا، له أسنان ناصعة البياض ويرتدي زيًّا أسود بالكامل، قد وزع بعض الأموال على العاملين وسألهم عن السفينة التالية التي كانت ستبحر متجهة إلى البحر الأسود. كانت الصفقة قد عُقدت، وجيء بتابوت ضخم على متن السفينة. وكان من المقرر إنزال التابوت في ميناء

«فارنا» وتسليمه لوكيل هناك. بعد ذلك، استقرت فوق المركب ضبابة غامضة انقشعت بالسرعة نفسها التي تكونت بها. علم الرجال أن الكونت قد تسلل بداخل تلك الضبابة إلى ظهر السفينة ودخل التابوت. بعدها أبحرت السفينة «زارينا كاثرين».

على مدار الأيام القليلة التالية، نَوَّمَ فان هيلسنج مينا بضع مرات أخرى، وظلت رؤياها تخبره أن السفينة في البحر. وبالرغم من ذلك كان فان هيلسنج قلقًا. فإذا كانوا هم يستطيعون أن يقرءوا أفكار مينا، فقد يستطيع الكونت في المقابل أن يقرأ أفكارها ويعرف خططهم التي وضعوها لمحاربته.

كانت مينا يراودها الخوف نفسه. وقالت لزوجها: «عزيزي، أتغير كل يوم أكثر فأكثر. ويقوى ارتباطي بالوحش. لا بد أن تستمروا في تنويمي وتعرفوا خططه، لكن حرصًا على سلامتكم وسلامتي أيضًا، يجب ألا تخبروني بأي شيء عن خططكم، حتى تزول الندبة عن جبهتي.»

قررت المجموعة أن تسافر برًّا — ومعهم مينا هذه المرة — بحثًا عن الكونت. سوف يستقلون قطار «أورينت إكسبريس» من باريس ليسبقوا سفينة الكونت إلى فارنا. كانت أقصى أمانيهم أن يصعدوا على متن السفينة ما إن يجدوها، أثناء نوم الكونت في تابوته بين شروق الشمس وغروبها؛ حينها لن يستطيع مقاومتهم، ويجهزون عليه في التوِّ، كما فعلوا مع لوسي.

أثناء جلسات التنويم على متن القطار، وبعد أن سبقوا الكونت إلى فارنا، كانت إجابات مينا لا تزال تشير إلى وجود السفينة زارينا كاثرين في البحر. كانت مينا تتحدث عن أمواج متلاطمة ومياه تجري، وضباب وصرير صواري المراكب. وأخيرًا، علموا أن السفينة على بُعد ٢٤ ساعة تقريبًا، وأنها ستصل فارنا في الصباح التالي. في ذلك اليوم، كانت مينا في قمة الإعياء، ومرت بأصعب جلسات التنويم التي رأتها حتى ذلك الوقت.

وبحلول ظُهر اليوم التالي، لم تكن السفينة قد ظهرت على مرمى البصر بعد، ولم تُسمع أخبار عنها. لكن مينا كانت أفضل حالًا. فمع أن الندبة كانت لا تزال على جبهتها، فقد شعرت أنها عادت تقريبًا لذاتها التي ألفتها، وكأنها تحررت. كشفت جلسة التنويم في ذلك اليوم مرة أخرى عن «أمواج متلاطمة» و«مياه تجري». كانت السفينة زارينا كاثرين لا تزال في البحر إذن، ولكن أين؟ كان يُفترض أن تصل إلى فارنا قبل ذلك بوقت طويل. هل كان الكونت يفر إلى ميناء آخر؟

وبعد مرور يومين، تلقى الرجال برقية أكدت أسوأ مخاوفهم. فبدلًا من الرسو في ميناء فارنا — كما كانوا يتوقعون — دخلت زارينا كاثرين ميناء جالاتز ذلك اليوم، وكان ذلك الميناء يقع على مسافة أبعد عند أعلى النهر. على الفور، بدأ الرجال في التحرك.

سألوا: «متى يتحرك أول قطار إلى جالاتز؟»

طلب فان هيلسنج من مينا أن تتفضل بإحضار جدول مواعيد القطارات. وعندما رحلت، التفت إلى جوناثان وحدَّثه عن مخاوفه. عندما كانت مينا متعبة على نحو غير طبيعي منذ بضعة أيام، كان السبب على الأرجح هو أن الكونت قد أرسل روحه لتقرأ أفكارها. وضع فان هيلسنج إصبعه على فمه، لأن مينا كانت عائدة إلى الغرفة.

حاول كلا الرجلين أن يبدوا بريئين، لكن كان يبدو أن مينا أصبحت الآن تقرأ أفكارهما أيضًا. سألتهما: «لقد استغلني، أليس كذلك؟ لقد قرأ أفكاري.»

أومأ فان هيلسنج إليها.

قال فان هيلسنج محاولًا التخفيف عنها: «لكنك قد تكونين الآن أكثر حريةً قليلًا بعيدًا عن قبضته. إن العقل الإجرامي عقل أناني. وبما أنه قد حصل من خلال عقلك على ما يحتاجه ليفر منا، فإنه يظن أنه لم يعد يحتاج إليك. لكنه سيظن أنك انتهيت منه أيضًا.»

وعلى متن القطار إلى جالاتز، أثناء مزيد من جلسات التنويم التي خضعت لها مينا، أخبرت عن حدوث تغيير. قالت: «شيء ما يحدث، أشعر به يمر خلالي كأنه رياح باردة. هناك رجال يتحدثون بلغات غريبة، ومياه تتساقط، ومن بعيد، أسمع عواء الذئاب.» وفي اليوم التالي، أخبرتهم أنها سمعت أصوات ماشية، وطقطقة أخشاب.

وصلوا إلى جالاتز وعلموا من مسئولي الجمارك أن سفينة الكونت قد رست بالفعل. وكان بانتظارها بعض السلوفاكيين الذين كان من المقرر أن ينقلوا الشحنة طوال ما تبقى من الطريق، عبر البحر. لكن أي بحر كان هذا؟

نظرت مينا إلى الخريطة، وقالت: «بناءً على ما تقولون أني أخبرتكم به أثناء نومي، أعتقد أن النهر ضيق والسفينة مفتوحة تسيِّرها إما مجاديف أو صارٍ، وهي تبحر نحو أعلى النهر. فمثل هذه الأصوات لم تكن لتصدر عن سفينة تطفو بهدوء في اتجاه التيار. ومن ثم، وفقًا لهذه الخريطة، فإنه يبحر إما في نهر بروث أو سيريث. تسهل الملاحة أكثر في نهر بروث، لكن سيريث أقرب من قلعة دراكولا لشخص يحاول الوصول إليها عن طريق البحر.»

قال جوناثان: «زوجتي عبقرية.» ووافق الآخرون على هذا الرأي.

كانت هذه خطة فان هيلسنج: كما سبقوا الكونت إلى فارنا، سيحاولون مباغتته في ترانسلفانيا. يصعد اللورد جودالمينج وجوناثان على متن قارب بخاري ويتبعانه بحرًا. ويتبعه كوينسي موريس وآرثر على ظهور الجياد برًّا. ويأخذ فان هيلسنج ومينا الطريق الذي كان جوناثان اتخذه في البداية عندما فرَّ من قلعة الكونت عبر جبال الكاربات.

سأل جوناثان الأستاذ فان هيلسنج: «هل تعمد إلى وضع زوجتي بين حجري رحا ذلك القاتل؟»

أجاب فان هيلسنج: «إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذها، بل في الواقع لإنقاذنا جميعًا.»

الفصل الثامن عشر

الدائرة تدور على الكونت

لم يكن الإبحار يسيرًا على أي من أفراد المجموعة، في أي من مراحله. فقد تأخر مركب اللورد جوداِلمينج وجوناثان وقتًا قصيرًا بسبب حادث بسيط وقع أثناء محاولتهما شق طريقهما بسرعة. وبالرغم من التأكيد على أن الكونت كان لا يزال في الماء، فقد كان تنويم مينا يزداد صعوبة كل يوم.

مع اقتراب مينا وفان هيلسنج من القلعة، أصبحت مينا تنام طوال النهار. وأثناء الليل كان فان هيلسنج يبقى مستيقظًا فيجدها تحدق فيه بعينين مضيئتين للغاية. خشي أن تكون قد أصابتها لعنة المكان، لأنها كانت ملوثة بتعويذة الكونت. وبالرغم من ذلك، كان عليه أن يؤمن بقوة إرادتها، بأن روحها كانت طاهرة، على الأقل لوقت أطول قليلًا.

لكن فان هيلسنج أحاط نفسه ومينا بدائرة صغيرة من الخبز المقدس في المكان الذي توقفا فيه ليخيما ليلًا.

قال فان هيلسنج لمينا: «هلا اقتربت من النار؟» لقد كان اختبارًا؛ لأن النار كانت خارج الدائرة.

أجابت في حزن: «تعلم أنني لا أستطيع.»

فجأة، بدأت الخيول تصهل في فزع. ركض فان هيلسنج عائدًا داخل الدائرة بينما كان الضباب يدور حولهما. شاهد فان هيلسنج ومينا الضباب وكانت تتشكل بداخله أجسام. كانت الأخوات الثلاث التي وصفها جوناثان في مذكراته.

ما إن رأت النساء الندبة على جبهة مينا، حتى ابتسمن لها، ونادَين عليها: «تعالي يا أختي! تعالي!» لكن عيني مينا لم يكن بهما سوى نظرة اشمئزاز بعثت الطمأنينة في قلب فان هيلسنج. فاندفع خارجًا من الدائرة ممسكًا بعض الخبز المقدس، وفرت النساء. لكنهنَّ لم يبتعدن خاليات الوفاض، فقد تركن الخيول ميتة.

ترك فان هيلسنج مينا نائمة داخل الدائرة وسار إلى القلعة بمفرده. اقتحمها واتبع الطريق المؤدي إلى الكنيسة الصغيرة كما وصفه جوناثان في مذكراته. كان يعلم أنه سيجد في مكان ما ثلاثة قبور على الأقل ترقد بها الأخوات الثلاث عليه تطهيرها. وبالفعل وجدها وتولى أمرها.

وبعد ذلك، رآها، قابعة في أعتم وأبعد زوايا الكنيسة: مقبرة هائلة جميلة وعتيقة. لم يكن مكتوبًا عليها سوى كلمة واحدة: «دراكولا». فتحها فان هيلسنج وكانت فارغة، فنثر فيها بعض كسرات الخبز المقدس، ليقصي الكونت إلى الأبد عن مأواه الذي ضمه مئات السنين.

عندما عاد فان هيلسنج إلى معسكرهما، وجد مينا لا تزال نائمة في هدوء وأمان داخل الدائرة. ولكن بينما كان يوقظها، استعدادًا لأن يعود بها إلى القلعة، سمعا عواء ذئاب قادمًا من بعيد وصوتًا أشبه بضجة تقترب سريعًا.

صاح: «لا يوجد وقت، أسرعي، لا بد أن نختبئ!» وجد فان هيلسنج تجويفًا ضيقًا في صخرة، واختبأ الاثنان به. من ذلك المكان، كانا يستطيعان الدفاع عن أنفسهما ضد من يهاجمهما بشرًا كان أم ذئبًا.

من موقعهما شاهق الارتفاع فوق الجبال، كانا يستطيعان رؤية المشهد بالأسفل بوضوح. غامرت مينا بالإطلال برأسها للخارج برهة، فرأت شيئًا يصعد مسرعًا أحد جوانب الجبل. لقد كانوا مجموعة من الغجر يقودون عربة تحمل صندوقًا كبيرًا مربعًا. الكونت! كان الغجر يسابقون غروب الشمس، حيث إن الكونت لا بد أنه أمرهم ودفع لهم ليوصلوه إلى منزله قبل حلول ساعة السَّحر.

وخلف تلك المجموعة، كان يركض بسرعة رجلان يمتطيان جواديهما. كانا كوينسي موريس ودكتور سيوارد! وعلى الجانب الآخر من الجبل — حيث كان هناك طريق آخر يؤدي إلى الغابة — رأت مينا رجلين آخرين، حبيبها جوناثان واللورد جودالمينج، وكانا يمتطيان جوادين أيضًا ويركضان إلى قلب الحدث. كانت تلك الحركة المنظمة أشبه برقصة جميلة. عندما أخبرت مينا فان هيلسنج، صاح في طرب كالطفل الصغير.

اقترب الغجر شيئًا فشيئًا. بقي فان هيلسنج ومينا مختبئين في الصخور، شاهرين أسلحتهما، وعازمين على منع الغجر من المرور. وصلت جميع الأطراف أرض الغابة المقفرة في وقت واحد. ومن جهتين متقابلتين، صاح الصيادون فوق ظهور الجياد: «توقفوا!» ربما لم يكن الغجر يفهمون اللغة، لكن لم يخفَ عليهم معنى تلك الكلمة ولا الأسلحة المصوبة نحوهم.

أسرع جوناثان وكوينسي موريس نحو العربة. تملكت جوناثان قوة غريبة أكثر من الآخرين، قوة خارقة. تفادى سكاكين الغجر وعبر إلى الصندوق الكبير الممتلئ بالتراب فرفعه ثم طرحه أرضًا.

هرع كوينسي موريس ليساعده، متفاديًا السكاكين أيضًا، لكنه لم ينجح كصديقه. فقد اخترقت إحدى السكاكين جانبه وبدأ ينزف بشدة. ومع ذلك، استمر يقاتل. انتزع الرجلان معًا الغطاء من فوق الصندوق الكبير، ووقف الآخرون يؤمنونهم بأسلحتهم.

وداخل الصندوق، رأوه راقدًا، ذلك المخلوق الذي ظلوا يسعون وراءه كل هذا الوقت؛ دراكولا. كان الكونت يرقد بهدوء داخل الصندوق، شاحبًا كالأموات، وكأنه تمثال من الشمع. كانت عيناه بالرغم من ذلك مفتوحتين تطل منهما نظرة شر كانوا جميعًا يعرفونها جيدًا.

وفي تلك اللحظة رأت هاتان العينان الشمس تغيب في الأفق، وتحولت نظرة الكراهية فيهما إلى نشوة انتصار. ظن الكونت أنه فاز مرة أخرى. فور أن تغرب الشمس، سيكون بمأمن من أي مكروه.

ولكنه تسرع بإيقان النصر! ففي تلك اللحظة هاجمه جوناثان وكوينسي موريس فاخترقا قلبه وقطعا رأسه بسكينيهما. وأمام أعينهم جميعًا، انهار جسد الكونت بالكامل إلى ثرى واختفى.

أفزع الغجر الاختفاء المفاجئ للجثة، فرجعوا أدراجهم لينجوا بحياتهم. حتى الذئاب تراجعت إلى مسافة آمنة، وتركت المجموعة وشأنها.

تهاوى كوينسي موريس على الأرض منحنيًا على مرفقه ضاغطًا بيده على جانبه. ولاحظت مينا أن الدماء تندفع من بين أصابعه. فأسرعت إليه، والطبيبان أيضًا، لكن لم يكن بيد أحدهم شيء يفعله. التقط كوينسي موريس أنفاسه وأخذ بيد مينا وابتسم لها ابتسامة عذبة.

قال: «سعيد بأنني استطعت مساعدتك.» وضحك فجأة مشيرًا إلى جبهتها قائلًا: «رائع! انظروا! كانت رؤية هذا تستحق التضحية، انظروا! انظروا!»

سقطت أشعة الشمس التي كانت في طريقها إلى المغيب على وجه مينا، فأضفت عليه وهجًا ورديًّا. وعندما التفتوا إلى حيث كان كوينسي موريس يشير، رأوا ما كان يقصده. لقد اختفت الندبة. كانت جبهة مينا نقية كالثلج. لقد انقشعت اللعنة.

عندئذٍ، رحل عنهم كوينسي موريس؛ ذلك الرجل الذي ظل همامًا نبيلًا حتى النهاية.

بعد مرور سبع سنوات، عادت مينا وجوناثان إلى ترانسلفانيا. كان برفقتهما ابنهما كوينسي الذي سمي باسم صديقهما القديم الجسور. وبينما كانا يسيران على الأرض التي عجَّت يومًا بالذكريات المريعة ممسكين بأيديهما يدي كوينسي الصغير، تذكرا أحداث الماضي دون شعور باليأس وهما يتذكران الأشياء العظيمة التي يستطيع الناس أن يفعلوها في سبيل الحب.


هنداوي